نظرية العقل عند الفارابي

تأليف

د. عبد الحكيم بن يوسف الخليفي

المدرس بقسم أصول الدين

كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية

جامعة قطر

المقدمة

الحمد لله تعالى وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده،

يسترعي الانتباه في نظرية الإدراك العقلي عند الفارابي أنها تتم بتدخل خارجي ، وذلك بأن يفيض العقل الفعال صورة عقلية تصبح هي موضوع الإدراك العقلي. إن حصول الإدراك العقلي بواسطة العقل الفعال يضفي على هذا النوع من الإدراك بعداً ميتافيزيقياً. فنحن نعلم أن العقل الفعال هو آخر العقول الكونية الصادرة عن الأول تعالى ، وذلك بحسب نظرية الفيض الفارابية؛ كما أن هذا العقل الكوني الأخير هو المسؤول عن عالم ما دون فلك القمر ، فهو الذي يهب للمواد الواقعة في هذا العالم الصور النوعية الخاصة بها ، وعليه فمن الطبيعي أن نتساءل عن السبب الذي من أجله يخص الفارابي هذا النوع من الإدراك بتدخل مصدر علوي مفارق، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى ، فلما كانت وظيفة العقل الفعال هي في الأساس وظيفة وجودية ، كونه واهب للصور ، يصبح من المهم أن نستجلي العلاقة بين المعرفة العقلية عند الفارابي ونظريته في الوجود. وكما سيظهر لنا من خلال هذا البحث فإن الإجابة عن الأسئلة المعرفية والمتعلقة بدور العقل الفعال بالإدراك العقلي سوف تحيلنا في نهاية المطاف إلى تناول رؤية الفارابي للطبيعة النهائية للوجود، بحيث يصبح من الصعب تقديم رؤية متكاملة لنظرية الفارابي في المعرفة العقلية دون أن نتعرض لهذا الجانب الهام من فلسفة الفارابي.

هذا البحث محاولة لتوضيح نظرية الفارابي في الإدراك العقلي وعلاقة ذلك برؤيته للوجود. وكما سيظهر لنا من خلال هذا البحث فإن تحقيق العقل المستفاد للعقل الإنساني لم يكن سوى محاولة من الفارابي لردم الهوة الوجودية بين عالم لا مادي هو عالم العقول السماوية وعالم مادي هو عالم الجزئيات المحسوسة ، تلك الهوة الناشئة من أخذ الفارابي بنظرية الفيض العقلي كأساس في انبثاق الوجود . وهذه الدراسة وإن جعلت نصب عينيها توضح هذه المسألة إلا أنها لن تغفل أثناء ذلك معالجة الاعتبارات المعرفية والدينية والتي تحاول نظرية الإدراك العقلي الفارابية الإجابة عنها والتي هي في الحقيقة لا تقل أهمية عن ذلك الجانب.

ونظرية الإدراك العقلي الفارابية نجدها في عدد من كتبه الرئيسية مثل «آراء أهل المدنية الفاضلة» و«السياسة المدنية» و «رسالة في العقل» وغيرها. في تناولي لنظرية الفارابي في العقل سوف أعتمد بصورة رئيسية على هذه الكتب مع التركيز على مقالته في العقل ، فهذا الكتاب الأخير بالإضافة إلى أنه وضع خصيصاً لهذا الموضوع فإنه يتميز أيضاً بكونه أكثرها طرحاً للجوانب المعرفية والوجودية لنظريته في الإدراك العقلي.

(١)

يميز الفارابي بين نوعين من الإدراك للنفس الإنسانية: حسي، ويتعلق بالقوى الحاسة والقوة المتخيلة، وعقلي ويختص بالقوة الناطقة، «والنفس إنما تدرك بواسطة آلات الأشياء المحسوسة والمتخيلة. وأما الكليات فإنها تدركها بذاتها ونفسها»[1] فالنفس الإنسانية بواسطة قواها الحسية والخيالية تدرك الصور الحسية والخيالية، وبتوسط هذه الصور يمكن للنفس أن تدرك الصور المعقولة ؛ وفي موضع آخر يقول:« وحصول المعارف للإنسان

---

(١) الفارابي، التعليقات ، ص ٥٠.

يكون من جهة الحواس، وإدراكه للكليات من جهة إحساسه بالجزئيات»[٢] ويمضي الفارابي ، فيما يتعلق بهذا النوع الثاني، موضحاً بأن النفس الإنسانية هي عالمة بالقوة ، ذلك أن نفس الطفل لها استعداد لأن تحصل لها «الأوائل والمعارف، وهي تحصل له من غير استعانة عليها بالحواس ، بل تحصل له من غير قصد ، ومن حيث لا يشعر . والسبب في حصولها له استعداده لها» [٣] وهكذا فإن النفس الإنسانية لها إدراك حسي وإدراك عقلي. وإدراكها الحسي يتم لها بواسطة الحواس ، أما إدراكها العقلي فإنه وإن اشترط الفارابي حصوله من جهة إدراك النفس للجزئيات إلا أنه ، وكما يؤكد هو ، فإنه يحصل من غير معونة الحواس ، بل ويحصل من غير قصد ومن حيث لا يشعر الإنسان به ، أما كيف تحصل للنفس الإنسانية هذا الإدراك العقلي للمعقولات والكليات فهو ما تتكفل نظريته في الإدراك العقلي بتوضيحه.

يحدد الفارابي مراحل ثلاث تتدرج من خلال القوة الناطقة من حالتها الهيولانية أو القوة إلى الفعل. أول هذه المراحل هي العقل الهيولاني، والذي هو عقل بالقوة ، ويمثل أدنى مرتبة للعقل الإنساني، ثم العقل بالفعل ، وصولاً إلى العقل المستفاد ، والذي يمثل أقصى مرتبة يمكن للعقل الإنساني أن يبلغها. وبحصول العقل المستفاد تصبح القوة الناطقة عقلاً مستكملاً بالفعل شبيهاً بالجواهر المجردة أمثال العقول الكونية.

في بداية أمره تكون القوة الناطقة عقلاً بالقوة ، فهو شيء ما في قوته أن يعقل . وفي تلك الحالة يكون العقل الهيولاني خالياً من الصور العقلية، وذلك بانتظار أن تفاض عليه هذه الصور من الخارج . فالعقل الهيولاني في هذه الحالة أشبه ما يكون بالمادة الأولى من حيث أن له القبول فقط ، أي قبول الصور المعقولة ، ويبدو أنه من هنا جاءت تسميته

---

(٢) الفارابي، المرجع نفسه ، ص ٣٨.

(٣) الفارابي، المرجع نفسه ، ص ٣٨ - ٣٩.

بالهيولاني، ويصف الفارابي العقل الهيولاني بعدة أوصاف تتفق جميعها في أن القوة الناطقة في حالتها الهيولانية لم تصبح جوهراً عقلياً بعد. فالقوة الناطقة في هذه المرحلة هي: «نفس ما أو جزء نفس أو قوة من قوى النفس أو شيء ما ذاته معدة أو مستعدة لأن تنتزع ماهيات الموجودات كلها وصورها دون موادها»[٤].

ولما كان العقل الهيولاني غير قادر على أن يقوم بعملية الإدراك العقلي بذاته، احتاج إلى من يعطيه الصور المعقولة، وبذلك ينقله من حالته تلك إلى حالة الفعلية. فما هو بالقوة لا يخرج إلى ما بالفعل إلا بواسطة شيء آخر يكون هو في ذاته بالفعل. ويقوم بهذه المهمة العقل الفعال، والذي هو عقل بالفعل[٥]. ويبين الفارابي أن أول ما يفيضه العقل الفعال على القوة الناطقة هي المعقولات الأول والتي هي مشتركة لدى الناس جميعاً مثل أن الكل أعظم من الجزء، وأن المقادير المساوية لشيء متساوية[٦]. وبعبارة أخرى فإن أول ما يفيضه العقل الفعال على القوة الناطقة هي قوانين الفكر الأساسية والمبادئ العقلية الضرورية.

وفي توضيحه لكيفية قيام العقل الفعال بعملية الفيض بالنسبة للقوة الناطقة، يشبه الفارابي فعل العقل الفعال بالشمس بالنسبة لكل من العين والمرئيات؛ فالشمس تمنح العين الضوء الذي به تصبح الآلة الباصرة مبصرة بالفعل بعد أن كانت مبصرة بالقوة، وتصبح الأشياء للعين مبصرة بالفعل بعد أن كانت مبصرة بالقوة[٧]. وما يفعله العقل الفعال، في رأي الفارابي،

---

(٤) الفارابي، مقالة في العقل، ص ١٢.

(٥) الفارابي، آراء أهل المدينة، ص١٩١ -١٠٢، هذا وسيتم الإشارة إليه فيما يلي بالمدينة الفاضلة.

(٦) الفارابي، المدينة الفاضلة، ص١٠٣، قارن أيضاً فصول منتزعة، حيث يعطي الفارابي نفس الأمثلة لما يسميه «المقدمات الكلية الضرورية التي هي مبادئ العلوم» ص٥٠-٥١؛ ويسميها في السياسة المدنية: «العلوم الأول والمعقولات الأول» ص ٧١-٧٢.

(٧) انظر رسالة في العقل، ص٢٧؛ المدينة الفاضلة، ص١٠٢-١٠٣.

هو بالضبط مماثل لما تفعله الشمس بالنسبة للعين ، فهو يمنح القوة الناطقة المعقولات الأول، والتي تشكل الأساس النظري لما يعقبها من عمليات التفكير والتعقل.[٨]

يمثل الفارابي حصول الصورة المعقولة في العقل الهيولاني وقبوله لها بالشمعة المكعبة أو المدورة من حيث أن الشكل فيها لايتميز عن ذات الشمعة، بل هو شائع فيها. فكذلك حال الصورة العقلية والعقل الهيولاني عندما تحل فيه، لا يتميز أحدهما عن الآخر، بل كلاً منهما شائع في الآخر ومتحد به تمام الاتحاد[٩].

مما سبق يتضح أن العقل الفعال يفيض أولاً على العقل الهيولاني قوانين الفكر الأولية والتي تشكل الأساس النظري لما يعقبها من مراحل التفكير بالنسبة للعقل الهيولاني . هذا ويرى بعض الدارسين إلى أن للفارابي رأيين في مصدر المعرفة العقلية: الأول ، هو التأكيد على دور الحواس في حصول هذه المعرفة. الثاني، هو في حصولها عن طريق العقل الفعال[١٠] . ودليلهم في ذلك بعض المواضع التي يؤكد فيها الفارابي على دور الحواس في المعرفة العقلية. والذي يظهر لي هو أن الفارابي حين يتحدث عن دور الحواس في المعرفة العقلية فإنما يكون ذلك كالتمهيد لفيضان الصورة العقلية من العقل الفعال كما يدل عليه كلام الفارابي نفسه. فهو يقول: «وإذا حصل في القوة الناطقة عن العقل الفعال ذلك الشيء الذي منزلته منها بمنزلة الضوء من البصر، حصلت حينئذٍ عن المحسوسات التي هي محفوظة في القوة المتخيلة معقولات في القوة

---

(٨) وفي ذلك يقول الفارابي: «وهذه هي التي منها نبتدي فنصير إلى علم سائر الموجودات النظرية » فصول منتزعة، ص٥١.

(٩) الفارابي، رسالة في العقل، ص١٤-١٥.

(١٠) انظر د. أبو ريان ، تاريخ الفكر الفلسفي ، ص ٢٦٧؛ د. نصار ، في الفلسفة الإسلامية ، ص ٩٩-٢-١؛ ،وإن عاد ورجح د. نصار الرأي الثاني؛ د. العاتي، الإنسان في فلسفة الفارابي، ص١٦٤-١٦٨.

الناطقة، وتلك هي المعقولات الأولى التي هي مشتركة لجميع الناس مثل أن الكل أعظم من الجزء، وأن المقادير المساوية للشيء الواحد متساوية»[11]. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الفارابي بذلك يريد أيضاً أن يميز بين إدراك العقول السماوية للمعقولات وبين إدراك القوة الناطقة لها. فالنفس الناطقة«.. تدرك الصور المعقولة بتوسط صورها المحسوسة .. وذلك لنقصان نفسه واحتياجه في إدراك الصور المعقولة إلى توسط الصور المحسوسة، بخلاف المجردات فإنها تدرك الصور المعقولة من أسبابها وعللها التي لا تتغير»[12].

بعد مرتبة العقل الهيولاني تأتي مرتبة العقل بالفعل. ويقرر الفارابي أن حصول الصورة المعقولة في العقل الهيولاني يترتب عليه أمران: (١) فعلية العقل الهيولاني ، بأن ينتقل العقل الإنساني من مرتبة العقل الهيولاني إلى مرتبة العقل بالفعل؛ (٢) فعلية الصورة المعقولة ، ذلك أنه بحصول الصورة المعقولة في العقل الهيولاني تصبح صوراً معقولة بالفعل، وقد كانت قبل أن تعقل معقولات بالقوة ، فمعنى أنها معقولة بالفعل هو أنها حصلت معقولة للعقل الهيولاني[13].

فإذا صارت الصورة المعقولة معقولة بالفعل أصبحت هذه المعقولات والتي هي الآن معقولات بالفعل على حد تعبير الفارابي: «من ضمن موجودات العالم ، وعدت من حيث هي معقولات من جملة الموجودات»[14]. فوجودها الآن هو وجود بالفعل، كونها معقولات بالفعل، وذلك نتيجة لعملية التعقل والتي بواسطتها خرجت من المعقولية بالقوة إلى المعقولية بالفعل. وعليه فيمكن للمعقولات وقد أصبحت

---

(١١) الفارابي، المدينة الفاضلة، ص١٠٣؛ هذا وقد اعتمدت قراءة النسخة«ج» فإنه يتبين لي أنها الأصوب في هذا الموضع.

(١٢) الفارابي، التعليقات، ص٣٨.

(١٣) الفارابي، رسالة في العقل، ص١٥-١٦.

(١٤) الفارابي، المرجع نفسه، ص١٧-١٨.

معقـولات بالفعل أن تعقل أيضاً هذه مرة أخـرى ، وهذه المرة سوف تعقل من حيث هي معقولات بالفعل وعقل بالفعل، إذ هي والذات العاقلة شيء واحد ، ويكون موضوع التعقل في هذه الحالة ليس شيئاً غير العقل بالفعل وقد حصلت له صور المعـقولات بالفعل. فهذا تعقل يتم في المـرتبة الثانية بعد التـعقل الأول، ويكون موضـوعه العقل الهـيولاني الذي أصبح عـقلاً بالفعل والمعقولات بالقوة والتي أصبحت معقولات بالفعل[١٥] .

إلا أن العقل بالـفعل يكون عقـلاً بالفعل بالنسـبة لما حصـل عنده فقط من الصور المـعقولة ، أمـا بالنسبـة للصور التي لم يعـقلها بعـد فهـو عقل بالقوة . فـإذا عقل الصـورة الثانيـة التي لم تحصل له بالفـعل أصبح عـقلاً بالفعل بالنسـبة إلى كل من الصورة الأولى والثـانية ، وعقـلاً بالقوة لما لم يحصل له من الصـور المعقولة بعـد. فهو إذن عـقل لازالت فيه شـائبة من القوة وذلك بالنسبة لما لم يعقله من الصور[١٦] .

فإذا صـار العقل بالفـعل عقـلاً بالفعل بالنسـبة لجـميع المعـقولات بأن عـقلها ، أصـبح هو في تلك الحـالة أحد مـوجـودات العالم والقـابلة لأن تعقل. وعليه فـإنه متى عقل العقل بالفـعل ذاته وقد تحققت بتعـقل جميع المعـقولات، فإن مـوضوع التـعقل لا يكون أمـراً خارجـاً عن ذاته، بل إنما يعقل ذاته والتي قـد أصبحت عقلاً بالفـعل بالنسبة إلى جمـيع المعقولات. وعملية التعقل هذه لا تجعله عقلاً بالفعل بعد أن كان عقلاً بالقوة، كما هو الحال بالنسـبة لصـور الموجودات. فهي مـادامت في موادها قـبل أن تعقل بالفعل فهي معـقولة بالقوة، حتى إذا عقلت أصبحت معـقولة بالفعل. أما بالنسبـة إلى العقل الذي هو بالفعل بـالنسبة لجـميع المعقولات ، فـإنه متى عـقل فإن عـمليـة التعـقل لا تخـرجه من المعـقـولية بالقـوة إلى المعـقوليـة بالفعل،بل هو قبل ذلك مـعقول بالفعل وعقل بالفعل أيضـاً. وعليه فمتى

---

(١٥) الفارابي، المرجع نفسه، ص١٨.

(١٦) الفارابي، المرجع نفسه، ص١٨.

عقل ذاته الآن وقد تحققت بمعقولية جميع صور المعقولات فإنه يعقلها من حيث هي معقولة بالفعل وعقل بالفعل. فإذا عقل العقل الذي هو بالفعل صور المعقولات من حيث هي معقولة له بالفعل انتقل العقل الإنساني من مرتبة العقل بالفعل إلى مرتبة العقل المستفاد[١٧].

ما مضى كان إدراك العقل الإنساني لصور الموجودات الخارجية. ويقرر الفارابي أن هناك نوعاً آخر من المعقولات، وهي المعقولات المجردة بالفعل، أو العقول السماوية، وهي أيضاً قابلة لأن تكون موضوعاً لعملية التعقل. غير أن هذه الموجودات إذا تم تعقلها كان وجودها وهي معقولة من قبل القوة الناطقة هو بعينه وجودها قبل أن تعقل. إذ قبل أن تعقل هي معقولة بالفعل، لكونها في الأصل صوراً لا في مواد؛ ثم بعد أن تعقل من قبل القوة الناطقة تكون أيضاً معقولة بالفعل. فهذه المعقولات: «إذا عقلت كان وجودها في أنفسها هو وجودها وهي معقولة لنا»[١٨]. فتعقلنا لها لايمنحها وجوداً لم يكن لها قبل أن تعقل. ويستطرد الفارابي موضحاً أن هذه الصور التي لا في مواد، أو العقول السماوية، «إنما يمكن أن تعقل على التمام» بعد أن تحصل المعقولات كلها أو جلها بالفعل، ويحصل العقل المستفاد»[١٩]. فإذا حصل العقل المستفاد للقوة الناطقة أمكن لها أن تعقل العقول السماوية.

وبحصول العقل المستفاد فإن الفارابي يقوم بربط مراتب الموجودات بعضها ببعض بحيث يكون الأعلى منها صورة لما هو أنقص ، وذلك بدءاً بالعقول المفارقة وانتهاءً إلى صور الإسطقسات. فالأكمل من العقول المفارقة يعتبر صورة لما هو أنقص منها حتى تنتهي هذه العقول إلى العقل المستفاد والذي يكون كالموضوع لما فوقه من العقول السماوية وتكون هي

---

(١٧) الفارابي، المرجع نفسه ، ص١٩-٢٠.

(١٨) الفارابي، المرجع نفسه ، ص٢١.

(١٩) الفارابي، المرجع نفسه ، ص ٢١-٢٢.

كالصورة له. والعقل المستفاد أيضاً يكون كالصورة للعقل الذي بالفعل وهذا الأخير يكون كالموضوع والمادة له. والعقل الذي بالفعل يكون كالصورة للعقل الهيولاني، وهذا كالموضوع له، وكذلك الحال بالنسبة للعقل الهيولاني وما هو أدنى منه من القوى النفسانية؛ ثم بعد ذلك إلى صور الموجودات الطبيعية لكي تستمر العملية في الهبوط إلى أن نصل «إلى صور الإسطقسات والتي هي أخس الصور في الوجود، وموضوعها أخس الموضوعات وهي المادة الأولى»[٢٠].

(٢)

كان لابد من عرض نظرية الفارابي في الإدراك العقلي بطريقة مفصلة، إذ من خلال هذا العرض وحده سيمكننا أن نتبين الأسئلة التي تطرحها هذه النظرية. نلاحظ أولاً أن الفارابي يخص حصول المعقولات الأول للقوة الناطقة بمصدر مفارق هو العقل الفعال[٢١]. ثانياً، أن القوة الناطقة بعد انتقالها من الهيولانية إلى الفعلية وأصبحت عقلاً بالفعل لا تزال تحتوي على قدر من القوة وذلك بالنسبة إلى الصور العقلية التي لم تدركها، والتي يشترط الفارابي أن تدركها كلها أو جلها لكي تصل إلى مرتبة العقل المستفاد. ثالثاً، أن تعقل القوة الناطقة للعقول السماوية لا يمكنه أن يتم إلا بعد أن يتم إدراك جميع أو جل الصور العقلية ويحصل

---

(٢٠) الفارابي، المرجع نفسه، ص٢٢-٢٣.

(٢١) تعود نظرية العقل الفعال إلى أرسطو والتي كانت عباراته الغامضة حول العقل الفعال، ودوره مثار اختلاف كبير بين شراحه. وينبغي أن أشير إلى أن هذا الجانب التاريخي سيكون خارجاً عن نطاق هذه الدراسة، وكذلك الحال فيما يتعلق بتناول فلاسفة الإسلام قبل وبعد الفارابي لهذه المسألة، لمزيد من التفصيل انظر فيما يتعلق بأرسطو Ross, Aristotle,pp153-157؛ وفيما يتعلق بشراح أرسطو من اليونان والإسكندرانيين انظر دوهيم، مصادر الفلسفة العربية، ص١٠٠ - ١٣٢؛ وفيما يتعلقب بتناول فلاسفة الإسلام للعقل الفعال ودوره انظر د.المصباحي، من المعرفة إلى العقل.

العقل المستفاد. والسؤال هو لماذا كان تعقل هذه العقول السماوية مشروطاً بحصول مرتبة العقل المستفاد؟ لم لا ينظر إلى هذه العقول السماوية على أنها موجودات يمكن للقوة الناطقة أن تعقلها على حدة سواء قبل حصول العقل المستفاد أو بعده؟

فيما يتلعق بالملاحظة الأولى، فإن السبب الذي يقدمه الفارابي لكون المعقولات الأول تحصل للقوة الناطقة بواسطة العقل الفعال هو لضمان وحدة العقول الإنسانية فيما يخص قوانين الفكر الأساسية، ففي نص طويل من كتاب منطق البرهان للفارابي يشير الفارابي إلى أن لدينا يقيناً بما يسميه «المقدمات الأول» أو «المباديء الأول». ويتابع بأنه ليس من مهمة علم المنطق أن يبين جهة حصول الإنسان على هذه المبادئ ، لأن «الجهة التي منها حصلت هذه المعارف الأول هي أحد المطلوبات في العلوم والفلسفة». ويرفض الفارابي الرأي القائل بأن حصول هذه المقدمات هو الإداك الحسي، كون الإحساس لا يقدم لنا إلا معارف جزئية «محصورة العدد» بحسب تعبيره ، بينما «نجدها [أي المعقولات الأول] قد حصلت كليات حتى صرنا نحكم على موضوعات هذه المقدمات حكماً عاماً يشتمل على ما أحسسناه وما لم نحسه»[٢٢]. جلي إذاً أن السبب في تخصيص حصول المعقولات الأول بمصدر علوي مفارق يفيضها على العقول الإنسانية هو لتحقيق وحدة العقول الإنسانية إزاء هذا النوع من المعارف. فلما كان الإدراك الحسي غير كاف في تفسير ما نشعر من يقين كلي إزاء هذه القضايا، لكون الإدراك الحسي لا يتناول إلا جزئيات محدودة، كان لابد وأن نبحث عن سبب لهذا اليقين فيما وراء الحس. غير أن مصدر هذه المعارف، وكما يوضح الفارابي، ينبغي أن يبحث عنه في كتب العلوم والفلسفة لا في كتب المنطق، والتي تهتم بإجراء عمليات الاستدلال للأقيسة دون النظر في أسسها المعرفية.

---

(٢٢) الفارابي ، منطق البرهان ، ص٢٣-٢٥.

لا ينحصر دور العقل الفعال في علاقته بالقوة الناطقة في إفاضته لقوانين الفكر الأساسية ، بل هو يتعدى ذلك ليشمل تكميل النفس بالمعارف العقلية بغية نيلها لرتبة العقل المستفاد تمهيداً لمفارقتها، وهو ما يعني استمراره معها في سائر مراحل إدراكاتها العقلية. فالعقل الفعال، كما يقرر الفارابي«فعله العناية بالحيوان الناطق والتماس تبليغه أقصى مراتب الكمال الذي للإنسان أن يبلغه، وهو أن يصير في مرتبة العقل الفعال» [٢٣]. ويؤكد هذا المعنى بقوله:« من ذلك القوة الناطقة التي بها الإنسان إنسان ليست هي في جوهرها عقلاً بالفعل ، ولم تعط بالطبع أن تكون عقلاً بالفعل، ولكن العقل الفعال يصيرها عقلاً بالفعل ويجعل سائر الأشياء معقولة بالفعل للقوة الناطقة»[٢٤]. وهذا المعنى يقرره الفارابي أيضاً بقوله:« . . العقل الفعال معد بطبيعته وجوهره أن ينظر في كل ما وطأه الجسم السماوي وأعطاه. فأي شيء منه قبل التخلص من المادة ومفارقتها رام تخليصه من المادة والعدم، فيصير في أقرب مرتبة إليه ، وذلك أن تصير المعقولات التي هي بالقوة معقولات بالفعل، فمن ذلك يحصل العقل الذي كان عقلاً بالقوة عقلاً بالفعل. وليس يمكن أن يصير كذلك شيء سوى الإنسان، فهذه السعادة القصوى التي هي أفضل ما يمكن الإنسان أن يبلغه من الكمال»[٢٥] إن ماتكشف عنه هذه النصوص وغيرها هو أن عملية الإدراك العقلي والتي تتم بمساعدة العقل الفعال ليست عملية إدراكية وحسب، بل هي بالإضافة إلى جانبها المعرفي فإن لها دوراً تكميلياً للنفس الناطقة، لكونها تساعدها على الوصول إلى رتبة العقل المستفاد، والتي يصفها الفارابي بأنها« السعادة القصوى ، والحياة الآخرة»[٢٦].

إن ربط السعادة بمرتبة العقل المستفاد هو بسبب كون هذه المرتبة هي

---

(٢٣) الفارابي، السياسة المدنية ، ص٢٣.

(٢٤) الفارابي، المرجع نفسه ، ص٣٥.

(٢٥) الفارابي، المرجع نفسه ، ص٥٥.

(٢٦) الفارابي، رسالة في العقل، ص٣١.

التي تصبح فيها القوة الناطقة شبيهة بالعقول المفارقة ، وذلك بأن يتحقق التجوهر العقلي التام الذي لها بأن تصبح عقلاً وعاقلاً ومعقولاً بالفعل. وفي ذلك يقول الفارابي: «فإذا حصلت القوة الناطقة عقل بالفعل صار أيضاً ذلك العقل الذي هو الآن عقلاً بالفعل شبيهاً بالأشياء المفارقة : يعقل ذاته التي هي بالفعل عقل، وصار المعقول منه هو الذي يعقل ، ويكون حينئذٍ جوهراً يعقل بأن يكون معقولاً من جهة ما يعقل ، فيكون العقل والمعقول والعقل فيه شيئاً واحداً بعينه ، فبهذا يصير في رتبة العقل الفعال، وهذه الرتبة إذا بلغها الإنسان كملت سعادته»[٢٧]. غير أن مرتبة العقل المستفاد والتي تنال فيها القوة الناطقة تجوهرها العقلي التام يشترط الفارابي في تحققها ، وكما مر بنا في مقدمة هذا القسم أعلاه ، أن تعقل القوة الناطقة جميع أو جل المعقولات. هنا لابد من معرفة العلاقة بين هذين الأمرين.

إن التجوهر التام للعقل ، وكما توضحه آراء الفارابي نفسه في الواجب تعالى والعقول السماوية ، هو أن يصبح عقلاً ومعقولاً وعاقلاً بالفعل ومن جهة واحدة. وإذا بدأنا بالواجب جل وعلا فهو وكما يرى الفارابي، عقل وعاقل ومعقول بالفعل من جميع الجهات وبالنظر إلى ذاته تعالى وحده. فهو عقل لكونه مجرداً عن المادة . وهو معقول من جهة ما هو عقل، فلا يحتاج في كونه معقولاً إلى ذات «أخرى خارجه عنه تعقله»؛ فهو يعقل ذاته فهو عاقل ومعقول. ولا يحتاج إلى ذات أخرى يستفيد من خارج «بل يكون عقلاً وعاقلاً بأن يعقل ذاته ، فإن الذات التي تعقل هي التي تعقل».[٢٨]

أما تجوهر المفارقات من العقول الثواني والنفوس السماوية فإنه يختلف بحسب المرتبة الوجودية التي ينتمي إليها كل منهما. ففيما يتعلق بالعقول

---

(٢٧) الفارابي، المرجع نفسه ، ص٣٥

(٢٨) الفارابي، المرجع نفسه ، ص٤٥.

السماوية فإنها لا تنال «بهاء الوجود وزينته ، ولا الغبطة والالتذاذ والجمال» بأن تقتصر على تعقلها لذاتها وحدها. بل هي محتاجة إلى أن تعقل مع ذاتها ذات موجود آخر أكمل وأبهى هو الأول تعالى. ومن هذه الحيثية يصبح «في ذات كل منها من هذا الوجه كثرة ما». غير أن هذه العقول ليست في حاجة إلى أن تعقل ما هو دونها من الوجود وما يوجد عنها[٢٩].

أما الأنفس السماوية فلكونها مرتبطة بالأجرام الفلكية فإن أنحاء النقص فيها تكون أكثر. فإنه يوجد لها من أنواع النقص جميع ما يوجد في العقول السماوية ، ويزيد عليها أن الكثرة التي يتم بها تجوهرها تصبح حينئذٍ أزيد مما تتجوهر به العقول الثواني. فلكي يحصل لها الجمال والغبطة فإنها تحتاج إلى أن تعقل ذاتها وتعقل من العقول السماوية العقل الذي أعطاها جرهرها وتعقل الأول تعالى، وإن كانت ليست في حاجة إلى أن تعقل ما دونها من الموجودات[٣٠]. أما العقل الفعال فإنه ولكونه آخر سلسلة العقول المفارقة فهو يعقل الأول تعالى، ويعقل العقول السماوية كلها ، ويعقل ذاته[٣١].

فإذا ما جئنا إلى القوة الناطقة فلكي تصل إلى رتبة العقل المستفاد، والتي هي في الحقيقة رتبة العقل الفعال، فإن الفارابي يشترط وكما رأينا من قبل ، أن تعقل جميع أو جل صور الموجودات أو المعقولات. والسبب في كونها لابد وأن تعقل جميع أو جل المعقولات هو أن رتبة العقل الفعال هي في الحقيقة تشتمل على جميع الصور الحالة في المواد في عالم ما تحت فلك القمر ، فمنه فاضت جميع هذه الصور بما فيها الصورة الإنسانية. ذلك أن جميع هذه الصور التي هي حالة في المواد كانت أصلاً في العقل

---

(٢٩) الفارابي ، المرجع نفسه، ص٤٠.

(٣٠) الفارابي ، المرجع نفسه، ص٣٤ ، ٤١..

(٣١) الفارابي ، المرجع نفسه، ص٣٤.

الفعال بصورة غير منقسمة، ثم حلت في المواد وانقسمت[٣٢] . وعليه فلكي تصل القوة الناطقة إلى كمالها التام الذي لها وتصبح عقلاً مستفاداً، وهي في الحقيقة رتبة العقل الفعال، وجب عليها أن تعقل جميع أو جل الصور الحالة في المواد. وفي ذلك يقول الفارابي: «فإن كمال وجوده [أي الجزء الناطق من الإنسان] ومصيره بالفعل وبهائه وزينته وجماله إنما يستفيده بأن يعقل ليس الأشياء التي فوقه في الرتبة، بل بأن يعقل الأشياء التي هي دونه في الرتبة، وتعظم الكثرة فيما يتجوهر به جداً»[٣٣]

وهذا بدوره يجيب عن النقطة الثالثة أعلاه، وهي أن تعقل القوة الناطقة للعقول السماوية لا يتم لها إلا بعد أن تعقل جميع أو جل المعقولات، وبعبارة أخرى أن تصل إلى رتبة العقل المستفاد. فلقد رأينا فيما يتعلق بالعقول السماوية والنفوس الفلكية والعقل الفعال أن كمال تجوهرها لا يتم إلا بأن تعقل ما فوقها من العقول السماوية، إلا أنها لا تحتاج إلى أن تعقل مادونها من المراتب الوجودية، فلا تستكمل بتعقلها لها. والسبب في ذلك، وكما يقرر الفارابي، أن هذه العقول هي سبب لما دونها فلا تحتاج إلى أن تعقلها[٣٤]. غير أن الوضع بالنسبة للقوة الناطقة مختلف؛ فهي ليست سبباً لما دونها من الموجودات. ولهذا فهي بحاجة إلى أن تسد هذا الجانب من النقصان فيها بأن تكون حاصلة على ما دونها من مراتب وجودية؛ وذلك لا يتم لها إلا بأن تعقل جميع ما دونها من صور الموجودات وتصل بذلك إلى رتبة العقل المستفاد وبالتالي يمكنها أن تعقل ما يعلوها من العقول السماوية.

---

(٣٢) الفارابي ، رسالة في العقل، ٢٩.

(٣٣) الفارابي ، المرجع نفسه، ص٤٢.

(٣٤) الفارابي ، السياسة المدنية، ص٤٠.

(٣)

لاح مما سبق أن نظرية العقل الفارابية تجد تتويجها على المستوى المعرفي بحصول العقل المستفاد للقوة الناطقة والذي هو في نفس الوقت سبيلها إلى السعادة. غير أن الاقتصار على الجانب المعرفي للنظرية لا يمكنه أن يقدم صورة مكتملة لأبعاد هذه النظرية ما لم نبحث دلالة حصول العقل المستفاد على المستوى الوجودي . ففي هذا النوع من النظريات لا يمكن فصل الجانب المعرفي عن الجانب الوجودي للنظرية.

يمكن القول بأن تخصيص العقل الفعال كمصدر للمعرفة العقلية جاء بمثابة تطبيق للمبدأ القائل بأن الشبيه لا يدرك إلا الشبيه. فلما كان من شأن اللامادي أن يأبى الاتصال إلا بما هو لا مادي، كان من الضروري أن تختص القوة اللامادية في النفس الإنسانية بمصدر علوي مفارق يزودها بالمعارف العقلية. ويمكننا بسهولة أن ندرك التناظر بين قطبي المعرفة والوجود عند الفارابي. فعملية الإدراك عند الفارابي تقع بين قطبي المادة والعقل، واللذان يشكلان في الوقت نفسه قطبي الوجود ، إذ الوجود عند الفارابي يتكون أيضاً من مادة وعقل. إن هذا التناظر بين المادي واللامادي على مستويي الوجود والمعرفة مما لا ينبغي أن يمر دون تساؤل.

إن التمييز بين اللامادي المجرد وبين المادي الجزئي يجد أساسه في نظرية الفيض الفارابية. فنظرية الفيض تقرر أن الأول تصدر منه على التوالي سلسلة من العقول الكونية المجردة إلى أن تقف سلسلة الفيوضات العقلية عند العقل العاشر وهو العقل الفعال لكي يبدأ بعد ذلك تشكل العالم المادي والذي يكون عالم ما تحت فلك القمر[٣٥]. إن استمرار

---

(٣٥) يعرض الفارابي نظريته في الفيض في مجموعة من كتبه ، انظر المدينة الفاضلة ، ص٥٥ -٦٨ ؛ السياسة المدنية، ص٣١-٦٣؛ شرح رسالة زينون، ص٣-٨. ولمزيد من التفصيل حول هذه النظرية والإشكالات الفلسفية التي تثيرها انظر الآلوسي، «نظرية الفيض الفارابية»ص١١٤-١٦٥.

الفيوضات العقلية في شكل عقول سماوية مجردة سيعني أن العالم المادي لن يوجد أبداً ، وهو خلاف الواقع. فالعالم المادي كأمر واقع يحتم على الفارابي أن يقوم بتفسير حصوله وبما يتفق مع ما اتخذه من أساس لتفسير عملية انبثاق الوجود أعنى به الفيض العقلي. هنا تقرر النظرية أن عملية الفيض العقلي مستمرة، ولكنها بدلاً من أن تكون صوراً عقلية مجردة كالعقول الكونية، أصبحت هذه المرة صوراً حالة في المواد. والسبب في حلولها في المواد هو أن هذه الصور لا يمكنها أن تقوم بذاتها، فمن أجل ذلك كونت المواد لتحل فيها. فالصور الحالة في المواد، وكما يخبرنا الفارابي، هي «في العقل الفعال صور منتزعة» أي مجردة ؛ ثم أعطيت المادة الأولى وسائر المواد «الصور التي في العقل الفعال، والموجودات التي قصد إيجادها قصداً أولاً فيما لدينا [أي في العالم الحسي] هي تلك الصور غير أنه لما لم يمكن إيجادها هاهنا إلا في مواد كونت هذه المواد » [٣٦]. إذن فالهدف من عملية الفيض هو أن توجد هذه الصور، إذ هي المقصودة قصداً أولياً من عملية الإيجاد، والتي هي في أساسها فيض عقلي. أما وجود المادة فهو أمر حاصل بالتبعية ، أي من أجل أن توجد هذه الصور بأن تكون حاملاً لها، لا بأن النظرية تستلزم وجودها. وهنا يبدو أن النظرية قد أفلحت في تبرير حصول العالم المادي بأن أرجعت وجوده إلى ضرورة استمرار الفيض العقلي لكونه الأساس في تشييد عملية الوجود والتي تهدف إلى إيجاد الصور سواء كانت مفارقة كالعقول الكونية، أو غير مفارقة كالصور الحالة في المواد.

غير أن هذا الحل، شأنه شأن جميع الحلول التبريرية ، يبدو أنه أثار اعتراضاً وجد الفارابي نفسه ملزماً بأن يقدم له حلاً. إن الاعتراض يتعلق أساساً بما نحن كنا فيه وهو هبوط الصور من العقل الفعال وحلولها في المواد. ومن الأفضل نقل هذا الاعتراض كما يعرضه الفارابي. يقول الفارابي: «وفي ما مضى موضع فحص، وهو أنه إن كانت هذه الصور

(٣٦) الفارابي، رسالة في العقل، ص٢٩، وانظر السياسة المدنية، ص٣٦.

ممكنة أن توجد من غير مواد فما الحاجة إلى أن تجعل في مواد، وكيف حطت من الوجود الأكمل إلى الوجود الأنقص»[٣٧]

يمس هذا الاعتراض الإشكال الذي تحاول نظرية الفيض الفارابية معالجته في الصميم وذلك في كيفية تفسيرها للعلاقة بين العالم اللامادي، عالم العقول المجردة، والعالم المادي. فهذه النظرية هي في الأساس متعلقة بإيجاد صور عقلية مجردة عن المواد كما هو الحال في العقول الكونية، فكيف جاز لها أن توجد صوراً حالة في المواد؟ إن سياق الاعتراض يفترض أن النظرية لا تجيز أن ينحط الشيء من مرتبة وجودية أكمل إلى مرتبة وجودية أدنى. لكأن العالم المادي والذي حلت فيه الصور الفائضة من العقل الفعال ليس هو المكان الطبيعي لهذه الصور. وعليه فمن المفترض أن تعمل النظرية على تحقيق مفارقة هذه الصور، وهو ما سيفعله الفارابي.

يقدم الفارابي جوابين لهذا الاعتراض ، وهو يستبعد الأول منهما لتعارضة مع ما تفترضه النظرية من مسلمات ليبقي على الثاني. يبدأ الفارابي الجواب الأول بقوله: «فلعل قائلاً يقول»، مما يشي بكونه مجرد جواب احتمالي وذلك تمهيداً لرده بعد ذلك. يفيد الجواب الأول أن هبوط الصور كان من أجل تكميل المواد بأن تصبح هذه المواد «أكمل وجوداً». وملاحظة الفارابي على هذا الجواب، والتي هي في نفس الوقت سبب رده له، هو أن هذا الجواب يفترض أن وجود الصورة كان من أجل المادة، وهو كما يرى «خلاف ما يراه أرسطو»[٣٨]. فلقد مر بنا في أول هذا القسم كيف أن الهدف من عملية الوجود هو إيجاد الصور في المقام الأول، وأن حلولها في مواد إنما كان بسبب أن هذه الصور لا يمكن أن توجد إلا كذلك. فالأعلى بحسب هذه النظرية لا يوجد من أجل الأدنى.

---

(٣٧) الفارابي ، رسالة في العقل، ص٣٠.

(٣٨) الفارابي، المرجع نفسه، ص٣٠.

في الجواب الثاني والذي يبدأه الفارابي بقوله: «أو نقول» مما يشعر بأنه الجواب المرضي لديه، يوضح الفارابي أن هذه الصور هي في العقل الفعال «بالقوة». ويشرح مراده بذلك من أنه لا ينبغي أن يفهم من هذا القول بأن العقل الفعال لديه الاستعداد والقوة على أن يقبل هذه الصور «فتصير فيه في المستقبل»، بل على«أن له قوة أن يجعلها في المادة صوراً، وهذه هي القوة على أن يفعل في غيره، فإنه هو الذي يجعلها صوراً في المواد ثم يتحرى أن يقربها من المفارقة قليلاً قليلاً إلى أن يحصل العقل المستفاد»[٣٩]. إذن فمعنى كونه فعالاً هو أن في قوته أن يعطي المواد هذه الصور، ثم يسعى بعد ذلك على مساعدتها على المفارقة لكي تعود إلى حالتها الأصلية وذلك قبل هبوطها من العقل الفعال. فهبوطها إذن من المحل الأكمل إلى المحل الأدنى هو حالة مؤقتة لكي تعود بعد ذلك من خلالها إلى المفارقة؛ أما القوة الناطقة فلأنها أصبحت عقلاً مستفاداً، وأما بقية الصور فهي تعود إلى المفارقة ولكن من خلال حصول العقل المستفاد والذي جعل تعقلها شرطاً لحصوله، فعملية الصعود على المستوى العقلي تكون معاكسة لعملية النزول والمتمثلة في سلسلة الفيوضات العقلية الصادرة عن الأول والتي انتهت بصدور العقل الفعال وبعده تأتي المادة. وعملية الصعود العقلي تبدأ بالعقل الهيولاني لتنتهي عند العقل المستفاد. وما يفيضه العقل الفعال من صور نوعية على المادة يعود إليه عن طريق العقل المستفاد.

هنا يجدر بنا التنبيه إلى أن جواب الفارابي يقصر المفارقة الحقيقية على القوة الناطقة وذلك بعد تصل إلى رتبة العقل المستفاد، والذي يصفها الفارابي بأنها«هي السعادة القصوى والحياة الآخرة»[٤٠] أما الصور الأخرى سواء كانت حيوانية أو نباتية أو جمادية فهي مستبعدة من عملية المفارقة وذلك على الرغم من كون جميع الصور هي أيضاً هابطة من العقل الفعال الذي هو بتعبير الفارابي«المحل الأكمل» إلى المواد التي هي أيضاً بتعبيره

(٣٩) الفارابي، المرجع نفسه ، ص٣١.
(٤٠) الفارابي ، المرجع نفسه، ص٣١.

«المحل الأنقص». وما يذكره الفارابي من أن مفارقتها تتم من خلال حصول العقل المستفاد هو في الأمر حل لفظي، إذ هو في نهاية المطاف لم يسفر عن أي نوع من المفارقة الحقيقة لها. فالمفارقة مقتصرة ، عند الفارابي، على القوة الناطقة، وما ذلك إلا لكونها الصورة اللامادية الوحيدة من دون سائر الصور الأخرى.

يمكننا أن نلاحظ أن عملية هبوط الصور من العقل الفعال وحلولها في المواد إنما كان الهدف منه هو حصول العقل المستفاد وتحقيق جوهرية النفس الناطقة؛ إذ ، في حقيقة الأمر، لم يترتب عليه جوهرية أو مفارقة أمر آخر. فعملية إيجاد العالم المادي وحلول الصور فيه لم ينتج عنها سوى تجوهر النفس الناطقة، والتي ما كان لها أن تتجوهر إلا بأن تعقل جميع الصور الهابطة من العقل الفعال والحالة في مواد. إن تحقيق جوهرية النفس الناطقة لم تكن في الحقيقة سوى تطبيق للمبدأ القائل بأن اللامادي لا يتصل إلا باللامادي ، والذي بسببه اقتصر دور العقل الفعال فيما يتعلق بعالم ما تحت فلك القمر على تحقيق تجوهر الصورة اللامادية الوحيدة أي القوة الناطقة، وذلك دون سائر الصور الهابطة منه . ونحن قد مر بنا في القسم الثاني كيف أن الفارابي يقرر صراحة أن العقل الفعال: «فعله العناية بالحيوان الناطق والتماس تبليغه أقصى مراتب الكمال الذي للإنسان أن يبلغه»[٤١]، وأن العقل الفعال وإن كان بطبيعته يسعى لتخليص الصور من المادة إلا أن الإنسان هو وحده المؤهل لقبول فعله[٤٢] ، وماذاك إلا بسبب وجود القوة الناطقة فيه. وعليه فعملية الفيض فيما يتعلق بالعالم المادي لم تسفر إلا عن تجوهر القوة الناطقة. والحق أن هذه نتيجة غير مستغربة من نظرية كهذه. فباستنادها على الفيض العقلي كأساس في عملية الوجود، فإن هذه النظرية تكون، ومنذ البداية ، قد قصرت نفسها على تحقيق تجوهر العقل سواء كان عقلاً مفارقاً كونياً أو عقلاً إنسانياً.

---

(٤١) الفارابي ، السياسة المدنية، ص٢٣.

(٤٢) الفارابي ، المرجع نفسه، ص٥٥.

شكل اتخاذ العقل كأساس في تشييد عملية الوجود الخطوة الأولى، والتي لابد وأن تتلوها الخطوة الثانية وهي إمكانية تحقيق الربط الاشتقاقي بين مراتب الموجودات إذ من دون ذلك تصبح النظرية قاصرة فلسفياً كونها تفقد أحد أهم عناصر البحث الفلسفي وهو القدرة على إرجاع الوجود إلى مبدأ نهائي ووحيد[٤٣] ، وهي قد فعلت ذلك وبالاستناد إلى العقل أيضاً.

هنا نأتي إلى مذهب الماهية أو الكلي كأساس في تفسير الوجود، والذي يعود في الحقيقة إلى أرسطو وأفلاطون ومن قبلهما سقراط. فالظواهر الجزئية للواقع الخارجي، بحسب هذا المذهب، تجد تفسيرها في الماهيات أو الكليات. وإذا ما بدأنا بسقراط فسنجد أن مذهب الماهية عنده تمثل في تدشينه لنظرية التعريف بالماهية. فسقراط كان ينظر إلى الكليات ولكونها ثابتة على أنها تمثل حقائق الأشياء. وعليه فموضوع العلم أو الفلسفة، بالنسبة إليه ينبغي أن تكون هي الكليات وليس الجزئيات. ثم أتى أفلاطون وقال، أولاً، بأن الماهيات هي ذات وجود حقيقي ، فهي توجد مفارقة في عالم عقلي هو عالم المثل؛ وثانياً، أن الوجود الحقيقي إنما هو وجود ذلك العالم العقلي، عالم المثل، وليس عالم الجزئيات المادية. وموضوع العالم عنده يتعلق بالماهيات الكلية وليس الجزئيات المتغيرة. مع أرسطو شهد هذا المذهب تعديلاً عما كان عليه عند أفلاطون، بحيث ستصبح الصورة التي اتخذها هذا المذهب على يد أرسطو هي التي سنصادفها بعد ذلك عند الفارابي. فأرسطو يتفق مع أفلاطون في أن الماهية هي الأساس في الواقع، إلا أنه يرفض عالم المثل الأفلاطوني والذي توجد فيه الماهيات بوجود مفارق لجزئياتها. بل الماهية، بحسب أرسطو ، موجودة بوجود محايث للجزئيات الخارجية والتي هي تشكل ماهياتها. غير أن أرسطو ، وإن رفض أن توجد الماهيات العقلية بوجود مفارق في عالم المثل، إلا أنه يقول بوجود مفارق لموجودات من نوع آخر هي العقول

---

(٤٣) انظر : ميد، الفلسفة، ص١٩٧.

الكونيـة[٤٤]. وهكذا فإن أرسطو وإن رفض عـالم المثل الأفلاطوني والذي توجد فيه الصـور الكلية مجردة عن المواد إلا أنه يستبـدله بعالم عقلي آخر هو عالم العقول المجردة عن المواد.[٤٥]

فإذا ما أتينا إلى الفارابي والذي هو موضوع بحثنا ، فإننا سنلاحظ أن الفارابي وإن قبل نظرية الفـيض الأفلوطونية كأساس لتفسيـر انبثاق الوجود إلا أنه رفض الواحـد الأفلوطيني كمـبدأ أول لعمليـة الفيض مـفضـلاً عليه العــقل الأول الأرسطي. إن هذا الميـل إلى جـانب أرسـطو أمـلاه سـبب منهجي يتعلق أساساً بمهمة الفلسـفة كما يراها الفارابي. ذلك أن من مهمة الفلسفة إرجاع الوجود إلى مبدأ نهائي ووحيد بحيث يصبح هو الأصل في تفسير مراتب الوجود التالية له. «فالحكمة ، يقول الفارابي، علم الأسباب البعـيدة التي بهـا وجود سائر الموجـودات كلها، ووجود الأسـباب القـريبة للأشياء ذوات الأسباب»[٤٦]. والواحد الأفلوطيني ولكونه يعلو علواً مطلقاً على العـقل بـل وعلى الوجـود أصـبـحت بينه وبـين العـقل ، والذي هو الصـادر الأول عنه، هوة غـير مـعـبورة مما يـجعل من الحـديث عن صلتـه بالعقل وما يليـه من المعقولات والمحسوسـات أمراً مستحـيلاً، الأمر الذي جعل من مسألة كـونه مبدأ أولاً أمرافتراضي، أي مصادرة مـحضة لا مبرر لها[٤٧].

وهكذا فلكي تتحقق للمبدأ الأول الأولوية التامة لابد وأن يفسر نفسه

---

(٤٤) يقدم د. عبدالرحمن بدوي ، عرضاً موجـزاً وقيماً لتطور مذهب الماهية من سقراط إلى أرسطو . انظر بـدوي، أرسطو، ص٥٣-٥٥؛ وقـارن أيضـاً فـرنر ، الفلسـفـة اليـونانيـة، ص٦٠-٧٣ ، ٩٢-١٠٤، ١٣٢-١٤٨؛ لكل من سـقــراط وأفـلاطون وأرسطو على التوالي.

(٤٥) فيما يتعلق بهذه النقطة انظر:
Merlan , Greek philosophy From plato to plotinus , p.43.

(٤٦) الفارابي، فصول منتزعة ، ص ٥٢ ومابعدها.

(٤٧) لمزيد من الـتـفـصـيل حـول هذه المسـألة انظر بدوي ، خـريف الفكر اليـوناني، ص١٢٣-١٢٤؛ سانتلانا، الوجود الإلهي، ص١٢٧.

بنفسه، فيحدد نفسه بنفسه، ويعين ذاته. إذ لو فسر بشيء آخر فلن يكون والحال هذه مبدأ أول، لأن الشيء الذي فسره سيكون سابقاً عليه وإن سبقاً منطقياً وبالتالي يصبح مبدأ للتفسير أعلى منه. وهذا قد وجده الفارابي في العقل الأول الأرسطي. فالعقل بما هو عقل مجرد عن المادة، فلا يحتاج إلى مادة يقوم بها؛ فهو من هذه الناحية يقوم بذاته. كذلك فإن فعل العقل، أي التعقل ، هو فعل ذاتي له ينتمي إلى العقل ذاته بما هو عقل؛ فلا يحتاج العقل في ممارسته لفعل التعقل إلى شيء آخر أو ذات أخرى؛ فهو من هذه الناحية مكتف بذاته مستغن تمام الاستغناء. بالإضافة إلى أن كون ذاته هي موضوع تعقله يجعل من وجوده غايته النهائية المطلقة، فليست له من هذه الناحية غاية تتعدى ذاته. فالأول تعالى كما يقرر الفارابي: «العقل والعاقل والمعقول فيه معنى واحد وذات واحدة وجوهر واحد لا ينقسم»[٤٨]

إن تحقيق مبدأ أول مكتف بذاته وغير قابل للرد إلى ما هو أعلى منه كانت الخطوة الأولى والتي كان لابد وأن تتبعها الخطوة الثانية وهي ربط الموجودات بهذا المبدأ ربطاً اشتقاقياً وذلك عن طريق إرجاع الكثرة إلى هذا المبدأ وبطريقة اشتقاقية ، وهو ما يحققه الفارابي من خلال مفهوم العقل أيضاً. والحق أن هذا هو ما تشعر به الأوصاف التي يصف بها الفارابي الأول تعالى، ففي خاتمة رسالته في العقل يتحدث الفارابي عن أن الأول تعالى هو واحد تام الوحدة، ولا يمكن أن يوجد من هو أكمل منه، «ولا أن يكون له مبدأ ، فهو إذا مبدأ المبادئ كلها ، ومبدأ أول للموجودات كلها. وهذا هو العقل الذي يذكره أرسطو في حرف اللام من كتاب ما بعد الطبيعة. وكل واحد من تلك الأخر [أي العقول السماوية] أيضاً عقل، إلا أن ذلك هو العقل الأول، والموجود الأول، والواحد الأول ، والحق الأول. وهذه الأخر إنما صارت عقلاً عن ذاك

(٤٨) الفارابي، المدينة الفاضلة، ص٤٦-٤٧؛ وانظر السياسة المدنية ، ص٤٥.

على ترتيب»[٤٩].

والكيفية التي يرجع الفارابي بواسطتها الكثرة من الموجودات إلى العقل الأول تقوم على تصوره للوجود على أنه يتكون من مراتب متدرجة من الصور أو الماهيات العقلية، والتي تبدأ بالأول مروراً بالعقول السماوية، فالعقل الفعال فالعقل المستفاد فالعقل بالفعل فالعقل الهيولاني لكي «تبتدي الصور في الانحطاط إلى الصور الجسمانية الهيولانية»، بحيث تكون كل مرتبة وجودية صورة لما دونها ومادة لما فوقها، وذلك بدءاً بالصور المجردة نزولاً إلى «صور الاسطقسات التي هي أخس الصور في الوجود وموضوعها أخس الموضوعات وهي المادة الأولى»[٥٠]. فالوجود يتكون من ماهيات عقلية متدرجة ، وما يقوم بعملية الربط بين هذه المراتب الوجودية المتعددة هو الصورة العقلية. والربط المقصود هنا هو الربط الاشتقاقي ، والذي تكون فيه المرتبة الوجودية تحتوي على ما دونها من مرتبة وجودية، وهو ما يشير إليه وصف الفارابي بكونها صورة لما دونها فهي محتوية لها. ولعل هذا يوضح لماذا لم تحتاج العقول السماوية أن تعقل ما دونها من الموجودات، لكونها هي نفسها تعتبر بحسب تعبير الفارابي: «صوراً لكل صورة تقدمت قبلها» فهي من هذه الناحية «الموجودات التي صورتها صورة الصور»[٥١] ، وكذلك هو الحال بالنسبة لواجب الوجود تعالى. فهو يعقل ذاته، ولما كانت ذاته «بوجه ما هي الموجودات كلها» فإنه يكون بذلك قد «عقل الموجودات كلها»[٥٢]

نحن الآن في وضع أفضل لتبين الأبعاد الوجودة لنظرية العقل

---

(٤٩) الفارابي، رسالة في العقل، ص٣٥-٣٦؛ وانظر أيضاً المدينة الفاضلة، ص٥٥-٥٦.

(٥٠) الفارابي، رسالة في العقل، ص٢٢-٢٤؛ وانظر أيضاً السياسة المدنية، ص٥٨-٥٩.

(٥١) الفارابي، السياسة المدنية ، ص ٥٨ -٥٩.

(٥٢) الفارابي، المرجع نفسه ، ص٥٨.

الفارابية، فهي ليست نظرية في المعرفة وحسب، بل لها تعلق أساسي بنظريته في الوجود، فمن خلال هذه النظرية يقوم الفارابي بتشييد نظام كوني يكون العقل فيه هو الأساس لذلك النظام، لكونه يعمل كمبدأ أول قادر على تفسير نفسه بنفسه، وكأصل نهائي ووحيد لجميع مراتب الوجود بحيث يمكن إرجاعها إليه بطريقة اشتقاقية ، ومن هنا يمكننا أن ندرك أهمية التدرج في مراتب الإدراك العقلي بالنسبة للقوة الناطقة وضرورة حصول العقل المستفاد وإدراكه لجميع ما دونه من صور الموجودات، إذ من دون ذلك لا يمكن أن يتحقق الربط بين مراتب الموجودات. ذلك أن تحققه يشكل خطوة ضرورية في ذلك الاتجاه، لكونه يعمل على ردم الفجوة الوجودية والقائمة بين العقل الفعال والعالم المادي، إذ من خلال ردم هذه الفجوة الوجودية يمكن للفارابي أن يحقق الربط الاشتقاقي بين مراتب الوجود العليا والدنيا.

فنظرية الفيض الفارابية تقف بسلسلة العقول السماوية عند العقل الفعال، لكي تبدأ بعده في التكون موجودات العالم المادي بدءاً من صور الإسطقسات وانتهاء بالإنسان ممثلاً في قوته الناطقة وهي في حالتها الهيولانية. هنا ينبغي أن نتذكر أن القوة الناطقة وهي في حالتها الهيولانية ليست هي المرتبة التي تلي العقل الفعال مباشرة، بل بينها وبين العقل الفعال رتبتان هما العقل المنفعل بالفعل والعقل المستفاد. فإذا حلت المعقولات الأول في القوة الناطقة وهي في حالتها الهيولانية أصبحت عقلاً منفعلاً بالفعل، فإذا أتمت القوة الناطقة استكمالها بأن عقلت جميع أو جل المعقولات أصبحت عقلاً مستفاداً وكانت في رتبة العقل الفعال[٥٣]. ومعنى ذلك أن هناك فجوة وجودية بين العقل العاشر، أدنى العقول السماوية، وبين القوة الناطقة والتي في حالتها الهيولانية تلك تشكل أرقى موجودات العالم السفلي. ولردم هذه الفجوة الوجودية كان لابد من أن ترتقي القوة الناطقة من حالتها الهيولانية إلى العقل المنفعل بالفعل ومنه إلى العقل

(٥٣) الفارابي ، المدينة الفاضلة، ص١٢٤-١٢٥.

المستفاد والذي بتحققه يتم الربط بين مراتب الوجود في كل من عالم ما فوق فلك القمر وعالم ما تحت فلك القمر وهو ما أوضحته رسالة العقل الفارابية.

وإذا ما تذكرنا أن القوة الناطقة تنتقل من العقل الهيولاني إلى العقل بالفعل إلى العقل المستفاد من خلال إدراك الصور العقلية نفسها التي هبطت من العقل الفعال، إذ العقل الفعال هو المفيض أيضاً للصور الوجودية على المواد الموجودة في عالم ما تحت فلك القمر، أمكننا أن ندرك العلاقة بين وظيفتي العقل الفعال المعرفية والوجودية عند الفارابي. ذلك أن الفارابي بتوحيده بين مصدر الصور الحالة في المواد وبين مصدر المعرفة العقلية في مصدر واحد هو العقل الفعال فإنه يقوم في الواقع بالتوحيد بين الوجود والمعرفة. فالوجود في حقيقته هو للصورة العقلية، ومن أدرك الحد العقلي للشيء فقد أدرك ماهيته وحقيقته، فالمطابقة بين الوجود والعقل تبدأ من كون الماهية والتي هي صورة العقلية للشيء هي وسلتنا الوحيدة لإدراك الوجود إدراكاً حقيقياً. وبهذا أيضاً تكتسب المعرفة العقلية اليقين الذي لها، فالمطابقة بين الصور العقلية التي في العقل الإنساني والصور الحالة في المواد تكون حينئذٍ مطابقة تامة[٥٤].

(٤)

لاح مما تقدم أن نظرية الإدراك العقلي عند الفارابي لم تكن فقط بحثاً في طبيعة العقل، وقواه الإدراكية، ثم كيفية حصول المعرفة العقلية للإنسان، بل هي بالإضافة إلى ذلك كله نظرية فلسفية ذات تعلق أساسي برؤيته للوجود. لقد ورث الفارابي من أفلاطون ثنائية حادة بين عالم عقلي وعالم مادي بدت واضحة في تمييز الفارابي بين عالم عقلي هو عالم العقول الكونية، وعالم حسي هو عالم الجزئيات المحسوسة، والتمييز بين

(٥٤) انظر صليبا ، تاريخ الفلسفة العربية ، ص١٦٥.

إدراك عقلي مصدره عقل كوني مفارق، هو العقل الفعال، وبين إدراك حسي مصدره المحسوسات المادية، مع ما يترتب على ذلك من أن تكون المعرفة العقلية هي أفضل من المعرفة الحسية. وكان أن توج الفارابي ذلك بأن جعل المفارقة في العالم السفلي مقتصرة على القوة اللامادية الوحيدة في هذا العالم، أعني القوة الناطقة.

لم يقف ميل الفارابي إلى جانب العقل عند هذا الحد، بل هو قد قام ببلورة نظام كوني تراتبي يكون العقل فيه هو الأساس في ذلك النظام الكوني؛ إذ بواسطته يمكن افتراض مبدأ أول ونهائي لهذا النظام الكوني يكون غير قابل للرد إلى ما هو أعلى منه، ثم يتم بعد ذلك ربط الموجودات به ربطاً اشتقاقياً حتى إذا ما وصلنا إلى المادة جاءت الصورة لتلعب دورها المهم في ربط العالم المادي بالعالم العقلي. وبجعله من العقل هو الأساس في تشييد عملية الوجود تصبح المعرفة الحقة لهذا الوجود هي المعرفة القائمة على التأمل العقلي والذي في جوهره يقوم على إدراك ماهية الشيء أو صورته العقلية. وبذلك تصبح مهمة الفلسفة في تفسيرها لسبب وجود هذه الكثرة من الموجودات وتنوعها هو العمل على إرجاعها إلى عللها الأولى، إلى ذلك العالم العقلي والذي تم افتراضه في أنه يقف وراء هذا العالم المادي المتغير ويكون سبباً في وجوده؛ ولما كان لابد وأن يلحق الإنسان بهذا العالم العقلي كان لابد من افتراض وجود قوة لا مادية فيه تجعله قادراً على إدراك هذا العالم العقلي أولاً، وبالتالي تؤهله للإنتساب إليه ثانياً.

المراجع

أولاً : المراجع العربية

١ - الآلوسي ، حسام الدين: «نظرية الفيض الفارابية ، نظرة معاصرة ص١١٤-١٦٥، ضمن كتاب: دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي، للمؤلف نفسه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ١٤٠٠هـ -١٩٨٠م.

٢ - أبوريان محمد علي: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار النهضة العربية ، بيروت، ١٩٧٦م.

٣ - بدوي، عبدالرحمن: «أرسطو»، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٠م.

- خريف الفكر اليوناني، وكالة المطبوعات ، الكويت، ١٩٧٩م.

٤ - دوهيم، بيار، مصادر الفلسفة العربية(قسم من كتاب «نظام العالم») ترجمة: أبو يعرب المرزوقي، بيت الحكمة ، قرطاج ، ١٩٨٩م.

٥ - سانتلانا: الوجود الإلهي بين انتصار العقل وتهافت المادة ، دمشق، مؤسسة ومكتبة الخافقين، ١٤٠١هـ -١٩٨١م.

٦ - صليبا ،جميل: تاريخ الفلسفة العربية ، الشركة العالمية للكتاب، بيروت ، ١٤١٥هـ١٩٩٥م.

٧ - العاتي، محمد: «الإنسان في فلسفة الفارابي، دار النبوغ ، بيروت، ١٩٩٨م.

٨ - الفارابي، أبو نصر: كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة ، تحقيق ، ألبير نصري نادر ، دار المشرق، بيروت ،١٩٩١م.

- التعليقات، تحقيق جعفر آل ياسين ، دار المناهل، بيروت ، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

- رسالة في العقل، تحقيق : موريس بويج، دار المشرق ، بيروت، ١٩٨٦م.
- كتاب السياسة المدنية الملقب بمبادئ الموجودات ، تحقيق : فوزي نجار ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ، ١٩٦٤م.
- شرح رسالة زينون الكبير اليوناني، حيدر آباد ، ١٣٤٩هـ.
- فصول منتزعة، تحقيق فوزي نجار، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٨٦م.
- كتاب البرهان، ضمن المنطق عند الفارابي، تحقيق: ماجد فخري، دار المشرق، بيروت ١٩٨٧م.

٩ - فرنر ، شارل: الفلسفة اليونانية، ترجمة: تيسير شيخ الأرض ، دار الأنوار، بيروت ، ١٩٨٦م.

١٠- المصباحي، محمد: من المعرفة إلى العقل، بحوث في نظرية العقل عند العرب ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٩٠م.

١١- ميد ، هنتر: الفلسفة أنواعها ومشكلاتها ، ترجمة: فؤاد زكريا، مكتبة الأنجلو مصرية ، القاهرة، ١٩٨٦م.

١٢- نصار ، محمد عبدالستار: في الفلسفة الإسلامية ، قضايا ومناقشات ، ج١، مكتبي لطباعة الأوفست ، القاهرة ١٩٨١م.

ثانياً: مراجع باللغة الإنجليزية

Merlan, P."Greek philosophy From plato to plotinus" in The Cambridge History of Later Greek & Early Medieval Philosophy,ed By: A.H. Armsrtong, Cambridge University Press, 1970.

Ross,David , Aristotle. Routledge,1995.